أمثال سورة النـــور

بقـــلم
أ . د / محمد محمد أبو موسى

لاشك أن دراسة تشبيهات سورة من سور القرآن دراسة متأنية جديرة بأن تكشف الوشيجة الجامعة بين هذه التشبيهات ، لأنها مادامت قد جرت فى سورة واحدة ، ذات سياق واحد فلابد أن تكون فيها جامعة تجمعها وهذه الجامعة قد تخفى وتدق ولكنها رقيقة ورائعة كهذه الطباع الخفية الحية التى تراها تجرى فى أبناء العشيرة الواحدة ، أو كهذه السيما والملامح الدقيقة التى تراها فى القوم يرجعون إلى أب واحد ، لأن كل رموز السورة وصيغها وصورها ترجع إلى مايشبه أن يكون أبا واحدا هو المحور الذى تدور حوله ، ولابد أن يكون فى كل هذه الصيغ وهذه الرموز وهذه الصور نفس واحد يجمعها ويؤلف بينها . ويجعلها (عائلة) واحدة ذات سيما وملامح متقاربة ، والبحث الواعى الفطن هو الذى يقع على هذا ، وهو قائم أيضا فى القصيدة كما هو قائم فى الديوان ، وقائم فى البقاع أعنى فى البيئة المكانية للأدب وكذلك فى البيئة الزمانية والحضارية إلى آخر هذا الأمر الذى لم نعطه إلى الآن حقه من العناية ومن الواجب أن نخصه بالدرس والاستنباط وأن نمنحه من الجد والدقة والروح العلمية مايجعل نتائجه أقرب إلى الإصابة والسداد ، وأبعد عن شوائب التعميم والتهويم المجازى الذى جرى فى كثير من الدراسات البلاغية والنقدية وأسقط كثيرا من نتائجها .

وهذه الدراسة لاتستطيع أن تصل إلى غاية المراد أو إلى مايقارب هذه الغاية وإنما تسعى فى جد ودأب وهى مقتنعة بأن اقتحام المخاطرة والسير فى

الطرق غير المعبدة باب عظيم النفع لأن خطأ السابق فيه يهدى إلى صواب اللاحق ولولا تقبلنا لأن نخطىء ماوضعنا أيدينا على صواب وإنى لأرضى أن أخطىء مائة مرة وأنا أبحث عن صواب واحد بشرط أن يكون مما لم يدرك بعد .

جاء التشبيه فى آيات ثلاثة فى سورة النور بدأ بقوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » (آية ٣٥) .

والتشبيه الثانى ، والثالث جاء متلاحقين يكشفان حقيقة واحدة هى أعمال الذين كفروا وقد جاء بعد المثل الأول بثلاث آيات قال تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » آية ٣٩ ، ٤٠ .

وهذه التشبيهات مبسوطة ومتنوعة يحد النظر فيها متقلبا ولهذا جعلناها موضوع هذا المقال ، مع أن السورة فيها تشبيهات أخرى ليست على هذا الحد من السعة والغزارة وإنما هو ربط أمر بأمر ربطا سريعا مثل قوله سبحانه « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » (آية ٦٣) .

ومثل قوله سبحانه « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته » آية ٥٩ وفيها تشبيهان .

ومعرفة معانى هذه الألفاظ والصيغ الجارية فى هذه التشبيهات متوقف على معرفة السياق الذى جرت فيه لأن السياق هو الجذر الذى أمدها بالحياة والأسرار

وهو الأرومة والمعدن الذى إليه يرد الأمر . والسياق هو موضوع سورة النور وهى من السور القرآنية التى يظهر فيها وحدة الموضوع ظهورا لايلتبس لأنها تدور من أولها إلى آخرها حول تنظيم وتقنين الآداب الواجب توافرها فى علاقات الرجال بالنساء ، وإلى أى مدى تجب مراعاة الحدود التى حددتها الشريعة حتى يظل تسلسل الوجود الإنسانى الممثل لخلافة الله فى الأرض والنابع من هذين الجنسين نابعا من منبع الطهر بعيدا عن الريبة واللبس ويظل الإنسان من بين الخليقة كلها مكرما بنسبه ومعرفة آبائه الذين ينتهى إليهم « إدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » (الأحزاب آية ٥) .

وهذا الجانب من حياة الجماعة بالغ الدقة والحذر ومظنة الظنون والريب ، وقد تناولته السورة بشكل ظاهر وحاسم وحددت حدوده ، وأحلت حلاله ، وحرمت حرامه ، وقد بدأت السورة بذروة المأساة حين تنهدم الحدود فى هذا الأمر فذكرت أم خبائث هذا الشأن ووضعت حدها بصرامة وبسرعة عجيبة تأمل « الزانية والزانى فاجلدوا » .

وربطت القسوة على الخارج عن حدود الله بالإيمان بالله ، حتى لا يكون هنا مجال للمشاعر الكاذبة الناعمة ، وهذا رمى فى وجوه حماة الخنا فى المجتمع الإسلامى والذين يصفون الحدود بالغلظة والقسوة ومجافاة التحضر ، ثم تناولت السورة مايلى هذه الجريمة الأم فى سلسلة الآداب التى شرعتها وهو وضع الناس ألسنتهم فى أعراض بعضهم ، وجعلت السورة الشريفة رمى الأعراض بهذه الجريمة من غير بينة فى حجم فعلها فالزنى حده مائة والقذف حده ثمانون ، وكررت السورة خسيسة الرمى هذه فى مواضع ثلاثة وبصيغة واحـــدة لتثبيت بشاعتها « والذين يرمون المحصنات » (آية ٤) « والذين يرمون أزواجهم » (آية ٦) « إن الذين يرمون الغافلات » (آية ١٣) وجعلت ذلك الخوض واللغو رميا لأنه يصيب مقاتل الأعراض كما تصيب السهام مقاتل الصيد ثم لمحت السورة لمحا رائعا بذكر حديث الإفك فى هذا

السياق هذا اللمح هو بيان أن ألسنة أهل اللغو قد تصيب أعراضا طهرها كأنه من طهر السماء الذى لم تدنسه الأرض بآثامها ، ولمح آخر هو أن وضع الألسنة فى أعراض الناس باب فيه إغراء وتكثر فيه غفلة أهل التقوى فتقع فيه ألسنتهم غافلين عن مقتضيات المعقول فى هذا الشأن تأمل قوله تعالى يخاطب الجيل الذى نزل فيه القرآن لما وضع الناس ألسنتهم فى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، قال تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهن خيرا » . « لولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا » ثم مضى الحديث فى هذه السلسلة إلى شىء آخر هو آداب الاستئذان حتى لا تقع العيون على عورات الناس ثم غض البصر وطلب العفاف بالنكاح فإن لم يكن فى الوسع فبالصبر والاستعفاف والاستعصام حتى يغنيهم الله من فضله .

ثم جاءت آية التشبيه الأولى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » ...

وقد فصلت آية كريمة بين التشبيه وبين هذه الحدود وهذا التشريع وكانت بمثابة تلخيص لكل الذى مضى هذه الآية هى قوله تعالى « ولقد أنزلنا إليكم آيات بينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » (آية ٣٤) وقد ذكر المفسرون أن الآيات البينات هى هذه الحدود والموعظة قصة عائشة رضى الله عنها وقوله سبحانه فى شأنها « يعظكم الله أن تعودوا لمثله » .

وكان وصف هذه الحدود بأنها آيات أى علامات ظاهرة على طريق السلوك الإنسانى مقدمة لوصف شرع الله ونظامه وأنه نور السموات والأرض أى موضح لمعالم الحياة الإنسانية شارع لها طريقها ومنهاجها شرعا لا يلتبس بها ، وقد قال على كرم الله وجهه فى بيان معنى « الله نور السموات والأرض » أى نشر فيها الحق وبثه فأضاءت بنوره أو نور قلوب أهلها به ، فالنور المضروب له المثل بالمشكاة إلى آخره وصف لشرع الله وحدوده

وحلاله وحرامه ، وقد جاء النور فى القرآن مثلا لهذا قال تعالى «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره » (الصف آية ٨) وإتمام النور هو تثبيت هذه العقيدة فى نفوس الصالحين من عباده تثبيتا يكونون به حماة لها حراسا على حياضها .

والمثل الذى هو مثل لشرع الله فى هذا الشأن الذى هو نظام علاقات الرجال بالنساء فى المجتمع الإسلامى جاء هكذا كمشكاة أى كوة ضيقة ليست مثل النافذة ، وهذا الضيق يجعل نورها أكثر توهجا والمشكاة فيها مصباح ، والمصباح فى زجاجة ، والزجاجة كأنها كوكب درى ، تأمل المتابعة والتداخل المؤذن بغاية التوهج وفرط النور وأن هذا المثل هو مثل شرع الله وأن ضوابط الشرع وحدوده تنشر الحق والعدل والمرحمة والنور حتى تصير حياة الناس مغمورة بفيض النور الذى ترى وكأن النور هنا طبقات ودوائر تدخل كل واحدة فى التى تليها ثم هو نبع لا يغيض يستمد توهجه من شجرة مباركة وأنه بهذا التداخل وهذا المدد المتدفق صالح لأن يعم حياة الإنسان طبقة بعد طبقة وطورا بعد طور مهما اتسعت وتداخلت وتعقدت ودخل بعضها فى بعض وكأن هذا التداخل فى وصف النور فيه لمح إلى أنها بسخائها وتداخلها هى مشكاة لحياة الإنسان فى أطوارها وبساطتها وتعقيدها ثم إذا التفت إلى السياق المحدد للسورة وهو تنظيم علاقات الرجال بالنساء فى دنيا المعاش المزاحمة بالمناكب رأيت حدود الله فى هذا الشأن هى الضمان الأكيد لبقاء هذا الجانب الدقيق فى بؤرة الضوء والطهر والبعد عن الريبة ، وهذه العلاقات حية ومعاشة فى كل ساعة ولذلك كانت عرضة للتغيير والتعديل والتحوير وشرع الله إنما وضع لها ثوابت وحدودا لا تحول هذه الثوابت والحدود بين هذه العلاقات وبين التطور الحى المستنير بل تضمن لها هذه الحدود سلامة التطور والرقى الفقى السديد . لأن الخطوط العامة كأنها حصون حامية تأمل غض البصر ، وعدم إبداء الزينة ، والحسم فى العقوبات ، وطهارة اللسان عن الخوض

فى الأعراض إلى آخر الآداب المذكورة نجد هذا حين يتأصل فى حياة الناس و يصير قيما ثابته يفيض على الحياة فى هذا الجانب النور الساطع الذى لا خداع فيه ولا مواربة ولا كذب على النفس .

ثم جاء التشبيه الثانى يصف الوجه المقابل لهذا الوجه يصف الحياة التى تهمل هذه الحدود وتنطفىء فيها هذه المعالم المشرقة ، وتعيش خارج دائرة التدين .

قال سبحانه : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه » حياة الإنسان فى دائرة التدين تضيئها مصابيح توقد من شجرة مباركة لا ينضب معينها يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار يعنى هـــو صفو الصفو وخالص الخالص ، والإنسان فى هذا المحيط آمن يعرف طريقه لا يضل ولا يخدع ولا تذهب نفسه بددا إذا ألمت به العواصف النكباء ، وإنما هو حاضر فى الحياة بقلبه وعقله وعطائه حتى يمضى على طريقه الواضح المستنير بخطوات واعية محكمة .

وفى المقابل تأتى ممارسات الحياة الإنسانية المقطوعة عن الوحى فتوصف بأنها سراب ، وضلال ، وخداع ، وأن الروح معها تعيش فى غربة متقطعة ، ظامئة إلى ما يروى غلتها ، ولكن العناد والكفر يحرق هذه الروح بظمئها ، والتشبيه يصور الحالة فى صورة سراب يركض من ورائه الإنسان الظامىء ، والسراب هنا هو صالح أعمال الذين كفروا كالإحسان وصلة الأرحام ، ومعونة المحتاج ، وإذا كان هذا سرابا فغيره من أعمال الذين كفروا من باب أولى ، وهذا يعنى أن السلوك الإنسانى فى هذا الجانب الأخلاقى والاجتماعى الحيوى من حياة الإنسان لابد أن يكون موصولا بالإيمان بالله ومخافته ماضيا على ما شرع الله يحل حلاله ويحرم حرامه وهذا هو النور .

وإذا كانت أعمال الذين كفروا سرابا فأعمال الذين آمنوا نور يسعى بين

بين أيديهم وبأيمانهم لأنهم حصلوها بنور الشريعة، وقد قال العلماء إن نور الذين آمنوا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم لأنهم يتسلمون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين فالنور هو أعمالهم ولك أن تتأمل التداخل بين النور الذى هو نور الله والنور الذى هو أعمال المؤمنين ثم تأمل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به » والمشى هو كل ما تعالجه من شئون الحياة، يعنى الممارسات اليومية بدءا من حركة الخواطر داخل النفس وانتهاء بكل ما يعالجه الناس ملموكا وسوقة حتى الكلمة تخطها الأنامل على الورق فهناك كاتب جعل الله له نورا يكتب به فيكتب الحق والصدق والكلمة الطيبة وهناك كاتب لم يجعل الله له نورا يمشى به لأنه قطع صلته بالله وسقط فى الزيف والنفاق والكذب والزور، خدعه عقله فى ذلك أو خدع هو عقله فيه، وهذا هو السراب الذى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الحقيقة الغراء التى عاش حياته يروغ منها « فوفاه حسابه والله سريع الحساب ».

وفى هذا المثل لمح آخر هو أن ركض الظامىء وراء السراب فى الصحراء الحارقة المتوقدة يصف قصة الحياة المقطوعة عن الله ترى الإنسان فيها تائقة ظامئا لأن الفطرة فى داخله تدعو إلى الله ثم هو مخدوع وراء سراب من الأباطيل والفلسفات وخدع العقول وضلال الحكمة تحرقه رمضاء هذا كله وهو تائه عن النبع الذى يروى والذى أنبطه الله فى قلب أبينا الأول، وجعلها وصاة فى عقبه من بعده أن أقيموا الدين.

وشىء آخر يلتفت إليه فى هذا التشبيه وهو أن ذكر الماء والظامى تكرر فى هذا السياق يعنى وصف الذين كفروا وتوجههم إلى غير الله سبحانه وأنهم حينما ينصرفون عن الله الذى له دعوة الحق إلى غير الله يكون مثلهم كمن يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه قال سبحانه فى سورة الرعد « والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه » آية ١٤.

تأمل السورة تجد ظامئا كالذى فى سورة النور وهو هناك يجرى وراء سراب بقيعة وهنا على شاطىء نهر وهذا فارق كبير ثم إن مطلوبه هنا وهو الماء بين يديه ولكنه لم يحكم الوسيلة التى تمكنه من الانتفاع بالماء فهو يبسط كفيه أى يوسع بين أصابعه كما قال المفسرون ليبلغ الماء بذلك فاه وهذا خطأ لأن الماء يغترف باليد ، وبسط اليدين إلى الماء إشارة إلى الخطأ فى طريقة النظر ومنهج التعقل والتدبر والتذكر الذى أمرنا الله به وجعل سداده واستقامته طريقا إلى الإيمان واليقين .

والصورة المكانيه هناك صحراء قيعه لا حياة فيها وإنما فيها ركض وراء الوهم ، والصورة المكانية هنا شاطىء نهر والمثال المذكور باسط يده إليه .

وصورة السراب الذى يحسبه الظمآن ماء قريبة من صورة جاءت فى سورة إبراهيم عليه السلام مثلا لأعمال الذين كفروا ، قال تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » آية والجامع بين الصورتين هو خلو كل منهما من الماء وفى هذه الصورة الرماد المحترق والذى تذهب به الريح فى مهابها فى يوم عاصف ، وتأمل صياغة الكلام تأمل حرف التعدية (اشتدت به) ولم يقل اشتدت عليه ليؤذن باقتلاعه وإثارته ، واهاجته ثم تأمل إسناد العصف إلى اليوم والأصل أن يسند إلى الريح ، وأحكم دلالة إسناد الحدث إلى مائه وهو باب يبلغ من أبواب المجاز ، الصورة هنا مركزة على الأعمال وتبددها وضياعها واحتراقها ، وأما صاحب الأعمال فلا وجود له إلا فى التعقيب على الصورة فى قوله تعالى « لا يقدرون مما كسبوا على شىء » .

وهو تعقيب حكيم لأن كلمة (لا يقدرون) فيها محاولة واستنفار أقصى الطاقة لتبلغ القدرة مبلغا يصل بها إلى اقتناص ما كسبت ثم إخلادهم إلى التسليم والعجز ، وهذا وصف خفى للهول الذى لا يحاط به ، وهذا التشبيه

الذى يلخص ويكشف حالة الضياع للشىء المرجو نفعه فى وقت الحاجة إلى الانتفاع به جاء مغروسا فى موضعه من السورة كما يغرس العضو من أعضاء الإنسان فى موضعه الذى هو فيه ، بيان ذلك أن هذا التشبيه جاء متمما لوصف عذاب صاحب العمل وقد وصف القرآن ذلك وصفا يخلع القلب تأمل : « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه عذاب غليظ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ... » تأمل اللغة والصور التى وراء اللغة . تأمل قوله « وخاب كل جبار عنيد » وكيف أسقطت هذه الكلمات صروح الطواغيت فى مستنقع الخيبة والضياع ، ثم تأمل هذه الصورة الصارخة « ويسقى من ماء صديد » وكيف دل البناء للمجهول على أن هناك سقاة غلاظا يعالجون سقيه وهو كاره رافض وهم يصبون فى فمه ماء الصديد صبا بعد معالجة ، ثم تأمل قوله « ويأتيه الموت من كل مكان » والمراد أسباب الموت ولكن العبارة جعلت الموت جيشا يقتحم بحشوده يحيط بهذا البائس التعس وقوله من « كل مكان » يعنى أشباح الموت المخيفة المفزعة قد تزاحمت بها جنبات الأرض من حوله .

هذا تحليل لمساحة لغوية محدودة قبل التشبيه ، وجاء التشبيه امتدادا لخيوط ونسج اللغة والمعانى والأحوال التى وصفها هذا الحيز اللغوى المحدود الذى بيناه ، وبيان الامتداد والاتساق ظاهر لأن مقتضى المعقول أن يذكر هذا المعذب الذى يسقى من ماء صديد فى أى أمل يخرجه مما هو فيه ، ومن الطبيعى أن يذكر صالح أعماله التى تخفف عنه بعض البلوى ، وقد جاء وصف الأعمال بالرماد ليبين المدى الذى صارت إليه أعمـــاله من الاحتراق والتبديد والضياع .

ولا يمكن أن يوضع تشبيه سورة النور هنا ، لا يمكن أن يكون الكلام فى سورة إبراهيم بعد عرض حالة هذا الذى يأتيه من كل مكان وماهو بميت هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، وذلك لأمر ظاهر هو أن كل تشبيه

إنما هو امتداد للأنسجة اللغوية التي صاغت السياق كله . وهذا يعني ضروبا من الانساق الخفي المكين ، فصاحب الأعمال في سورة النور حي طليق يركض وراء السراب ، وهذا متلائم مع سياق يحدد للناس ضوابط السلوك في جانب حيوي من جوانب الحياة فليس هنا موت ولا عذاب في جهنم وإنما هنا حياه فسيحة متسعة وفريق من الناس يستضيء بنور الشريعة التي هي كمشكاة فيها مصباح إلى آخره ، وفريق آخر انقطع عن نور الشريعة فضل في أوهام الفكر وسراديب الضلال ، ولهذا كان وجود صاحب الأعمال في المثل حيا يسعى سعيه ويركض جهده أمرا طبيعيا .

وفي سورة إبراهيم « كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » بني المثل على العناية بالأعمال وأغفل صاحبها أليس له وجود وذلك لأن صاحب الأعمال انقطع عنها بموته وهو بين الزبانية يسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه فكيف يكون راكضا وراء السراب ؟!

وهذه لمحة سريعة تدل على مانريده بقولنا إن التشبيه من حيث لغته ، وصوره ، ولونه ، وطبعه ، امتداد للأحوال الجارية في السورة لأنه جزء منها يجري فيه مايجري فيها ، بل هو جزء من كل له طبع واحد وفيه ماء واحد فلابد أن تكون العلاقات بمثابة الشرايين الجارية في الجسد أو الدم الجاري في الشرايين فكما لا يكون الدم الجاري في بعض أجزاء الجسد من فصيلة مخالفة الدم الجاري في البعض الآخر كذلك لا تكون الأنسجة اللغوية والصور النفسية والرموز المعنوية الجارية في التشبيه معزولة عن الحركة اللغوية العامة الجارية في السورة كلها أو القصيدة كلها .

ثم ننتقل إلى المثل الثاني في بيان أعمال الذين كفروا في سورة النور وهو قوله سبحانه : « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

وقد جاء هذا المثل رادفا للمثل الأول كسراب بقيعة وهو من الباب الذى ينتقل فيه الكلام من تشبيه إلى تشبيه وهو قليل فى القرآن كثير فى الشعر الجاهلى ، وخاصة فى الصور المتسعة المتحركة فى أوصاف الناقة أو حمار الوحش أو غير ذلك ترى الشاعر يقول بعد الفراغ من تشبيه أفتلك أم وحشية مسبوعة ، وما يشبه ذلك مما تراه فيه يبدأ فى تشبيه آخر ، كذلك الحال فى سورة النور جاء المثلان هكذا « حتى إذا جاء لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى » .

وكما أننا لم نوف تشبيهات الجاهليين حقها كذلك لم نوف تشبيهات القرآن حقها يعنى لم تجب عن أول الأسئلة وأقربها فى هـــذا الباب وهو مامقصود الشاعر من هذا الانتقال ؟ وأى فرق بين الصورتين ؟ وأى معنى فى الثانى ليس فى الأول ؟ هذه الأسئلة القريبة لم نجب عليها فى أى قصيدة فى الشعر الجاهلى ، نعم أجاب المفسرون عن بعض هذه الأسئلة فى تحليل تشبيهات القرآن ، وقالوا أنه يكون انتقالا من البليغ إلى الأبلغ ، وهذه إجابة سديده وإن كانت قائمة على التعميم والتشبيه فى الحقيقة انتقال من البليغ إلى الأبلغ والتعميم فى هذا نفسه لأننا نريد أن نعرف البليغ والأبلغ معرفه محددة فتقول مثلا إن هذا التشبيه الأول كشف عن كذا والتشبيه الثانى كشف عن كذا وهذا الثانى فيه ماليس فى الأول وهو كذا ولهذا كان أبلغ ، وذلك لم يحدث ، كما أننا لم نحلل رموز التشبيهات ولمحاتها اللغوية وأنساقها الخفية ، ولندع هذا ولننظر فى التشبيه ونقول من غير تواضع أننا عاجزون من الوصول إلى حاق القول فى هذا الشأن وإنما نطمح فى أكثر ما تستطيع أو نحاول فنخطىء ليحاول غيرنا فيصيب .

وأول مايبدؤك فى هذا التشبيه أنه قابل الذى قبله مقابلة ظاهرة من حيث العناصر المكونة للصورة فالذى قبله صحراء مستوية (قيعة) يرتفع فيها الآل ، وهذا بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، هذا

فى البر وذاك فى البحر والبر فى الأول خراب ليس فيه إلا الصحراء وأهوالها فلا زرع ولا ضرع ولا حياة والبحر فى الثانى ليس فيه إلا مكونات البحار موج فوق موج فوقه سحاب ، والبر الخرب هناك ليس فيه إلا الإنسان الظامى الذى يركض وراء الوهم ، والبحر هنا ظلمات مطبقة لحسب ، وهذا للفارق عما يتبادر إلى الذهن من غير تأمل .

ثم إن هذا التشبيه الثانى بينه وبين التشبيه الأول « مثل نوره كمشكاه فيها مصباح المقابلة التى بينه وبين السراب . ولكنها مقابلة من حيث النور والظلمة فالأول نور على نور ، والثانى ظلمات بعضها فوق بعض ، وشىء آخر هو تقارب البناء اللغوى فى المثلين فقد احتشد المثل الأول لبيان وهج النور فذكر مشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة ، واحتشد المثل الثانى لتداخل الظلمات وأطباقها وتكاثفها حاذيا فى الصياغة حذو الأول تأمل « يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » ثم أن كل صورة من الصورتين هامدد بعدها ولا ينضب ففى الأولى شجرة مباركة يوقد منها ، وفى الثانية سحاب مطبق فوق موج من تحته موج فى بحر لجى . وكما قال هناك أيضا يهدى الله لنوره من يشاء . قال هنا « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نورا » . وهذه روابط أسلوبية لا تهمل وكأنها ضرب من التلاحم أو التناغى بين المثلين . وقد ترى هذا التشابه يتجاوز الأمثال إلى السورة كلها فلا تخلو سورة من سور القرآن من هذا الضرب من التناغى والتقارب فى الصيغ والكلمات ونذكر فى هذا المقام بالصيغ المكررة فى مثل والذين يرمون المحصنات وما بنيت عليه سورة مريم من قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب » فقد تكررت مع كل قصة وكيف كان هذا متسقا مع مطلعها « ذكر رحمة ربك عبده زكريا » إلى آخر هذا الباب الحافل بالبلاغة العالية والتى لا تزال هاجعة فى أوصال الكلام الرفيع ، وندع هذا لنقول إن هذه الروابط الاسلوبية بين المثلين لا يجوز لنا أن نهمل إدراكها واستخراجها

والإشارة إليها ، وهذا متوقف على ضرب من التدقيق اللازم فى القراءة ، ثم إن الوقوف عند إدراكه والإشارة إليه تقصير لا يحمد وذلك لأنه لابد من تفسير ذلك واستخراج سره وهذا لا يتأتى إلا بمزيد من الفقه والاجتهاد وهو مما تختلف فيه الأفهام ودلالته هنا أن المثلين من باب واحد يتناولان حقيقة واحدة من جهتيهما المتقابلتين الإيمان والكفر ، فالمشكاة مثل أعمال المؤمنين الواقعة على الوجه الشرعى والظلمات مثل أعمـــال الكافرين غير الموصولة بالله، وهذه الظلمات التى فوقها ظلمات هى العالم البهيمى الذى تدخله البشرية حين تنقطع صلتها بالله ، وبمقدار ما فى عالم الظلمات هذا من وحشة وغدر تجد العالم الذى تدخله البشرية آخذه بشرع الله نورا ساطعا يجعل كل ما فى الحياة إشراقة ضياء تفيض من كوكب درى يوقد من شجرة مباركة .

وشىء أخير فى هذين المثلين هو أنهما بمثابة تلخيص وتصوير لمعان جرت فى القرآن كثيرا تدور حول بيان الكفر والجهل بالظلمات والإيمان والوحى بالنور فالمؤمنون يخرجهم إيمانهم من الظلمات إلى النور ، وأصحاب الجبت والطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات والرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسله ربه داعيا بإذنه وسراجا منيرا وهكذا تجد هاتين الكلمتين فى القرآن تدوران حول هذين الأصلين .

وليس فى القرآن تشبيه حشد كل هذه الظلمات وكل هذه الأمواج وكل هذه السحب فى صورة واحدة إلا هذا التشبيه ، وليس فى الشعر الجاهلى صورة تقارب هذه الصورة من حيث كثافة الظلمات والسحب رغم ما فى الشعر الجاهلى من روائع فى وصف المطر ، بل إن هذه الصورة أشبه بصور الشمال الأوربى ولذلك عقب عليها مالك بن نبى رحمه الله وذكر أنها قاطعة فى أن القرآن ليس من كلام محمد صلوات الله عليه لأن من عاش فى جزيرة العرب لا يستطيع خياله نسج هذه التصوير .

وهذا المثل له رجع وصدى فى موضع آخر من السورة الشريفة فقد جاء

بعد ذلك بآية واحدة قوله تعالى « ألم ترى أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد» وهذا من جنس المثل الذى معنا تأمل يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما ، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، وتأمل « مشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة » تجد الكلام بنى على حذو واحد وكأنه من عشيرة واحدة وقد وجدت مثل هذا كثيرا فى قصائد الشعر حتى كأن كل قصيدة بنية واحدة متميزة تجرى فيها هذه التشابهات فى نسج الكلام وهذا من أسرار الفن وخفايا الصنعة فيه ومرجعه إلى امتداد نسج لغوى واحد فى السورة كلها وكأن إيقاع الكلمات إنما وقعت وتتابعت على خيوط واحدة ، ولاشك أن آية «ألم تر أن الله يزجى سحابا» امتداد طبيعى لآية أو كظلمات فى بحر لجى وكأنه نمو الكائن الحى ، وقد زاد هنا جبال الثلج التى لا وجود لها فى أرث بيان العربية التى نزل بها القرآن وتكلم بها النبى صلى الله عليه وسلم وكأن هذا حين يتقابل مع (سراب بقيعه) مؤذن بجمع أطراف الدنيا من أقصى شمالها وربط ذلك بالصحراء التى انفجرت من صخورها ينابيع النور »

وهذه العناصر التى هى الماء والظلمات وما يتعلق بها من أمواج وسحاب ورعد وبرق جاءت فى سورة البقرة تشبيها ثانيا متصلا بتشبيه أول على طريقة أو كظلمات فى بحر لجى .. وذلك مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى قال تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا » التشبيه الثانى هنا قريب جدا من التشبيه الثانى فى سورة النور، فالظلمات التى فى الصيب قريبة من ظلمات البحر اللجى وإن كانت الصورة فى النور قد تواترت فيها الكلمات والجمل لتصوير جبال من الظلمات بعضها فوق

بعض من غير أن يكون فى داخل هذه الظلمات إنسان يعالج كروبها ، والصورة فى البقرة تنوعت عناصرها فهناك الصيب والظلمات والرعد والبرق وفى داخل هذا كله إنسان مكروب يعانى هذه الأهوال بل إنه هو قطب الرحى فى الصورة ، والمنوال الذى نسجت عليه الصورة بكل عناصرها وخواطرها ورموزها ، ويقول المفسرين فى تفسير أو كصيب إن التقدير أو كذوى صيب لأن المشبه به هو الإنسان الذى هذا حاله كما جاء فى التشبيه الأول « كمثل الذى استوقد نارا » .

تأمل كلمات تشبيه سورة البقرة : يجعلون .. أصابعهم .. آذانهم .. أبصارهم .. لهم .. مشوا .. عليهم .. قاموا .. سمعهم .. تجد الضمير العائد على الجماعة الإنسانية الضالة منبثا فى الكلام كله والأحداث والأحوال منسوجة عليه ، وليس الأمر كذلك فى سورة النور لأن المثل هنا مثل الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والمثل هناك أعمال الذين كفروا .

والتشبيه السابق فى سورة البقرة « مثل الذى استوقد نارا .. ليس فيه ماء ولا سحاب وإنما عقد المثل على صورة رجل يبحث عن الضوء ويكدح تأمل كلمة (استوقد) فلما أمكنه أن يستخرج مايضىء به ذهبت يد الله التى لا تغالب بهذا الضوء وأطبقت الظلمات حول هذا المخذول .

وهذا المثل هو المقابل للسراب يحسبه الظمآن ماء فى سورة النور والفرق هو أن المثل هنا يدور حول الإنسان والمثل هناك يدور حول السراب .

ويلاحظ أن هناك إيماضات من النور فى أمثال سورة البقرة نجد هذا فى قوله (فلما أضاءت ماحوله) وفى قوله سبحانه « كلما أضاء لهم مشوا فيه » ليس شىء من هذا فى سورة النور وهذه الإشارات دالة على أن الذين اشتروا الضلالة بالهدى أدركوا الهدى وأضاء لهم ولكنهم ابتاعوا الضلالة وآثروها وقد ذكر المفسرون أن الاشتراء هنا مجاز عن الاختيار والاختيار لا يأتى

إلا بالمعرفة فالذين اختاروا الضلالة وآثروها على الهدى لاشك أنهم عرفوا الهدى وإلا فلا يصح أن يكون اختيارا ، والهدى الذى أدركوه كان إيماضا سرعان مايغوص فى أعماق ظلمات الضلال والعناد .

والمثل الثانى فى سورة البقرة أبلغ من المثل الأول كما قال الزمخشرى ولا حرج علينا حين نقول إن فى القرآن بليغ وأبلغ لأن البليغ قد بلغ حد الإعجاز ، وإن كان البعض يرى أن الاختلاف فى ظهور البلاغة يعنى أنها فى بعض الآيات أظهر منها فى البعض الآخر أما البلاغة فهى فى الكل على حد واحد لا تفاوت فيها ، وفى المسألة كلام آخر والمهم أننا نرى فى المثل الثانى مزيدا من التنوع والغزارة فى العناصر والأحداث والمخاوف والأهوال ونرى المثل بهذا أفسح مدى من المثل الأول .

تأمل المحيط الذى تتحرك فيه الأحداث تجد الصيب والظلمات والرعد والبرق وخطف الأبصار ثم تأملى الاشارات اللغوية ذات الدلالات المتسعة على الأحوال النفسية تأمل يجعلون أصابعهم والأصل أناملهم وقد دل هذا على أن القوم انخلعت قلوبهم وطاشت من هول المخافة لأنهم صاروا فى فم الموت ثم تأمل كلمة الخطف وما فيها من حدة وشراسة وقسوة ، وتأمل كلما أضاء لهم مشوا ، وكيف كانوا قائمين وهم خائفون يترصدون شعاعا من الضوء ليفلتوا من هول الهلاك وهكذا .

أما المثل الأول فليس فيه إلا المستوقد وحالته المخذولة من حيث تراه يكدح حتى يستخرج نارا أى نار تقطع هذه الوحشة المطبقة على النفس حتى إذا أضاءت ماحوله وآتاه الهدى ضربه الخذلان وذهب الله بهذا النور وبقى مغروسا فى جوف الظلمات ، وهنا إشارة لماحة فى إسناد الذهاب بالنور إلى الله الرحيم الرحمن هذه الإشارة هى فيض الخذلان الذى أصابه وما آل إليه من ضلال وفساد وجفوة . حتى إن الله سبحانه الذى وسع كل شىء

رحمة وعلما يذهب بنورهم ويتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

وهكذا نجد الأمثال تتقارب وتتنوع وتتفق وتختلف .

والمثل الثانى فى سورة النور : ظلمات فى بحر لجى إلى آخره تصوير لأعمال الفجور والفسوق والغدر وماهو من هذا الباب وليس فى المثل مايدل على أن لهم فيها مطمعا فى الآخرة بخلاف السراب فإنه نوع من الأمل وإن كان وهما ولهذا قلنا إنه مثل لأعمال البر كصلة القربى والإحسان .

وهذا سر اختلاف المثلين فيما ترى وكذلك اختلف المثلان فى سورة البقرة وقد ضرب لجماعة واحدة هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، ويبدو أن المثل الأول تصوير لضلالة أهل الضلالة حين لايخوضون صراعا مع الحق وأهله يعنى تصويرا لضلالهم فى أنفسهم من غير أن تحتشد هذه النفوس لمواجهة الحق ، والمثل الثانى تصوير لضلالتهم وقد خاضوا المواجهة مع أهل الحق ، وهذه الحركة وتلك الأحداث وهذا الصراع القائم بينهم وبين الطبيعة (الصيب والظلمات والرعد والبرق الذى يخطف أبصارهم) رمز لهذا الصراع الذى يخوضونه مع أهل الحق ولا تجد شيئا من هذا فى المثل الأول وإنما تجد رجلا يستوقد نارا ثم تنطفىء ويبقى فى ظلماته من غير أن يكون حوله رعد وبرق يخطف أبصاره ، ومن غير أن ينخلع قلبه من هول المخافة فيضع أصابعه فى أذنه وهكذا .

وأذكر بما قلته من أننا نحاول فتخطىء ليحاول غيرنا فيصيب وأرجوا أن يغفر الله لنا بهذا القصد مايقع فيه من فساد الرأى وإنما غايتنا أن تحرك العقول نحو هذا الباب الزاخر بالبلاغة العالية والتى لاتزال فى اكمامها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن يتبعهم بإحسان ؟